الفصل التاسع

التاريخ والمذاهب الفلسفية المعاصرة
مدخل إلى فقه التاريخ

ـ التاريخ بين المتفلسفين وأهل الأدب .
ـ التاريخ وعلم الاجتماع .
ـ البنائية والنزعة التاريخية .
ـ مناقشة لمذهب البنائية فى فهم التاريخ .
ـ مدخل إلى فقه التاريخ .

التاريخ بين المتفلسفين وأهل الأدب :

إن العمل الوحيد للمؤرخ هو التأريخ، والتأريخ هو دراسة تجارب الإنسان منذ وجوده على هذا الكوكب، وصراعه مع البدائية وعوامل الركود ودواعى الخوف، واجتهاده فى الوصول إلى الأمن والأمان ، والفهم والتعاون مع غيره، والتعامل الإيجابى مع الأرض وما عليها ومن عليها، وماضيها، وما فى جوفها، وما فى الكون كله .. فالمؤرخ يدرس هذه التجارب ويعيِّن ملامحها ومراحلها، ويحدد نتائجها بالنسبة للإنسان الفرد أولاً، ثم للجماعة الواحدة من البشر كالأسرة والقبيلة والأمة، وأخيراً بالنسبة للجماعات المختلف بعضها عن بعض، تكويناً ولساناً وفكراً ودِيناً وحضارة وطريقة حياة. وفى هذا كله لا يحتاج المؤرخ إلى التفلسف، وإنما هو يحتاج إلى الدقة والمنهج العلمى والأمانة والمنطق، والتجرد من الهوى الشخصى أو الدينى أو القومى ما أمكن ذلك، ولا يُطلب من المؤرخ أن يكون قاضياً، فليس من وظيفتنا أن نحاكم الناس والجماعات، وإنما وظيفتنا أن نعدّ للناس ملفات قضاياهم التاريخية، وندعهم بعد ذلك يحكمون إذا شاءوا .

ومحاولة أى مؤرخ لأن يكون قاضياً لا تخلو من غرور وسذاجة، ورغبة فى الترفع عن الخَلْق لإصدارالأحكام عليهم، ونحن لا نحاكم الناس، ولكننا نبدى الرأى فى التجارب التى تخوضها الأمم من خلال الوقائع التى نراها ثابتة بين أيدينا.

وقد رأينا كيف أن فريدريخ هيجل حاول أن يفلسف التاريخ أو يتفلسف فى النظر إليه، فلم يبلغ إلى أكثر من النظر إلى التاريخ بعين الفيلسوف، أى أنه ظل فيلسوفاً يتأمل نهر التاريخ، وكذلك الذين زعموا أن ابن خلدون مؤرخ فيلسوف أرادوا أن يخرجوه من إطاره كمؤرخ فقيه ، ولكنه ظل مؤرخاً فقيهاً، وهذا حسبه.

والفصول التى تدور على التاريخ فى «مقدمته» هى فى الحقيقة تاريخ وليست فلسفة، وأنظاره فى العمران ليست فلسفة، وإنما هى محاولة لفهم التاريخ، وبقية المقدمة معلومات عامة، فيها سعة اطلاع وبعد نظر، ولكنها ليست فلسفة، وفيها

أحياناً جبن وخضوع للواقع الزمانى والمكانى ، كما ترى إسرافه فى امتداح البربر وفى تكلفه الإيمان بالأولياء وأصحاب الكرامات ، وابن خلدون فى هذه الفصول يدافع عن حياته ، أو يؤمِّنها ؛ لأنه كان يعيش فى المغرب ، وهو عالم العصبيات القبلية البربرية، وأدعياء الولاية وأصحاب الكرامات .

ومثل هذا يقال عن أهل الفكر أو الأدب الذين اقتحموا مجال التأريخ ، فإنهم لم يصبحوا مؤرخين بذلك ، فقد كتب عباس محمود العقاد فى التاريخ كتبه المعروفة بالعبقريات ، وهى ليست كتب تاريخ ، وإنما كتب حكمة ؛ لأن العقاد نظر إليها نظر الحكيم على طريقته ومنهجه وطبيعته ، وكتب طه حسين بعض الكتب فى التاريخ ، فلم يصبح بذلك مؤرخاً ، وإنما هو أديب يكتب فى التاريخ بأسلوب الأديب ، ومثل العقاد وطه حسين فى هذا مثل الكثيرين من كتاب الغرب الذين كتبوا فى التاريخ من أمثال ماكولى عند الإنجليز ، وفريدريخ شيللر عند الألمان ، وماكولى أديب حكيم ، وكتاباته فى التاريخ أدب وحكمة ، وشيللر شاعر ، وكتاباته فى التاريخ شعر أو كلام شاعرى .

التاريخ وعلم الاجتماع :

وقد انفصلت عن بدن علم التاريخ علوم نمت وقامت بنفسها ، ومضت فى طريقها ، مثل علم الاجتماع، وهو يدرس أشكال المجتمعات الإنسانية وتركيبها وأحوالها وتطورها فى الماضى والحاضر. وهذا كله ـ فيما ترى ـ تاريخ، ولكن دوركايم وأصحابه استقلوا به، وجعلوه علماً قائماً بذاته، ووفقوا فى ذلك، ولكن ذلك لا يعنى أن المؤرخ لم يعد باحثاً فى الاجتماع، وإنما معناه أن المؤرخ عالم اجتماع بالقدر الذى تتطلبه دراساته، فأنت تستطيع أن تفرغ لدراسة أى ظاهرة من ظواهر حياة القرى المصرية، وتظل مع ذلك مؤرخاً تقف بقدمين ثابتتين على أرض التاريخ؛ لأن المجتمعات كلها تجارب إنسانية، ومادامت تجارب إنسانية، فهى فى صميم اختصاص المؤرخ.

ولكن أهل الاجتماع ـ عندما انفصلوا بعلم الاجتماع ـ أرادوا أن يكونوا

فلاسفة، وسدروا فى هذا الاتجاه حتى وصلوا ـ على يد عالم مثل **ليفى شتراوس** Lévi Strauss **وميشيل فوكو** Michel Foucault، **ولوى ألتوسير** Louis Althusser ، إلى فراغ يمكن أن نسميه : أرضاً لا تنتسب إلى علم No Science Land فتحدثوا عما سموه بالبنائية أو التركيبية Structuralism، ووجدوا لهذا الكلام معنى ومكاناً فى الفلسفة وعلم الاجتماع، ولكنهم لم يجدوا لهم سوقاً فى ميدان التاريخ؛ لأن التاريخ علم محدد صلب المادة والبناء، ولكيلا يخلو كتابنا هذا من معالجة لهذا الاتجاه لا أجد خيراً من أن أنقل هنا فقرة من رسالة قيمة كتبها رجل من صدور المشتغلين بالفلسفة فى عصرنا، وهو الدكتور فؤاد زكريا، عنوانها «الجذور الفلسفية للبنائية»، والفقرة التى أنقلها لك هى التالية:

البنائية والنزعة التاريخية :

ربما كان التضاد الأهم الذى تتحدد به طبيعة البنائية بمزيد من الوضوح هو تضادها مع النزعة التاريخية Historicism ؛ إذ إن الجدل الأكبر الذى أثاره البنائيون كان موجهاً ضد أنصار النزعة التاريخية ، والقوة الدافعة الأولى للتيار البنائى كانت الرغبة فى مراجعة التفسير التاريخى مراجعة جذرية ، ومن هنا كان فهم موقف البنائية من النزعة التاريخية أساسياً فى تحديد سماتها .

فقد كان من الشائع ـ فى القرن التاسع عشر بوجه خاص ـ تفسير كل الظواهر من خلال التاريخ ، فالسابق هو الذى يتحكم دائماً فى اللاحق ، والمنشأ الأول لأى ظاهرة ـ ثم مسارها التالى ـ أساسى فى فهم طبيعتها الحالية . ولقد اتفق على هذه النقطة مفكرون كانوا يختلفون فيما بينهم فى مسائل أساسية ؛ إذ قدم إلينا **داروين** تفسيراً لتطور الأحياء من منظور تاريخى ، وعمم **سبنسر** نظرية داروين من المجال البيولوجى إلى جميع المجالات : الاجتماعية والروحية والعلمية والمادية. واتخذ **نيتشه** من فكرة التاريخ أساساً لفلسفة كاملة تؤمن بأن للأخلاق والمعرفة والقيم (حتى المنطقية منها) تاريخاً، وبأن حاضر هذه المعانى لا يُفهم إلا من خلال ماضيها ، وبأن الإنسان كائن تاريخى فى صميمه. وطبق **ماركس** فكرة التاريخ على العلاقات الإنتاجية بين البشر فى مراحلها المختلفة ، فقدم

إلينا نظرية فى «المادية التاريخية» تجمع بين تأكيد الشروط المادية (والاقتصادية بوجه خاص) لتطور المجتمعات البشرية، وبين إعطاء أهمية كبرى للعامل التاريخى فى هذا التطور، بل يمكن القول ـ من وجهة نظر معينة ـ أن العلوم الطبيعية ذاتها كانت تضفى على الفكرة الرئيسية فيها ـ وهى فكرة السببية ـ طابعاً تاريخياً أو زمنياً؛ لأن السبب كان يُنظر إليه على أنه «السابق المتكرر أو الدائم».

والتقطت علوم إنسانية كثيرة فكرة التفسير التاريخى، فأصبح من الضرورى ـ من أجل فهم أية ظاهرة تنتمى إلى مجال الحياة الإنسانية ـ الرجوع إلى سوابقها الماضية ، وأصبح النقاد الفنيون والأدبيون يفسرون عمل الكاتب من خلال تاريخ حياته ، ويبنون نظرتهم إلى الفنان على وقائع نفسية أو اجتماعية أو سياسية لها كلها موقع محدد فى « التاريخ » ، أى أن التاريخ أصبح متغلغلاً فى كل شىء .

ولم يقف هذا التيار التاريخى الطاغى عند حدود القرن التاسع عشر، بل كانت له امتدادات قوية فى القرن العشرين، وتمثل ذلك فى عودة ظهور فكرة «التقدم» التى ترجع إلى القرن الثامن عشر، وتأكيد وجود اتصال واستمرار تاريخى بين الظواهر؛ فالحاضر كامن فى الماضى، والمستقبل كامن فى الحاضر. وهناك خط متصل من التقدم، يمتد من أقدم العصور حتى اليوم، وبفضله يتحقق انتصار الروح فى هذا العصر ؛ لأن كل عصر ـ وإن كان موجوداً فى حالة «كمون» فى العصر الذى سبقه ـ يضيف جديداً إلى حصيلة التجارب البشرية، ويسهم فى دفعها إلى الأمام، ولذلك فإن أعلى المستويات التى تصل إليها الروح البشرية ستكون فى المستقبل.

ولقد ظهرت محاولات متعددة للحيلولة دون انتشار هذه النزعة التاريخية الطاغية، كان من أشهرها محاولة **باشلار** G. Bachelard الذى أنكر وجود خط متصل من التقدم فى المعرفة العلمية، وذهب إلى أن تاريخ العلم هو تاريخ أخطاء وعقبات تقف فى وجه المعرفة بقدر ما هو تاريخ إنجازات ناجحة، بل إن الماركسية ذاتها ـ برغم ارتباطها القوى بالنزعة التاريخية ـ تنطوى على الفكرة القائلة بوجود نقاط انقطاع وانفصام فى التاريخ البشرى. وفضلاً عن ذلك.. فليس

من الضروري أن يكون الأساس الذى يبنى عليه التفسير سابقاً، من الوجهة الزمنية؛ فهناك غايات تستهدف المستقبل، وتكون ـ فى المجال الإنسانى ـ نوعاً خاصاً من العِلِّيَّة تتطلع إلى الأمام، لا إلى الخلف. وهذه مسألة ظهرت فى الماركسية التى يرتكز جانب كبير من دعوتها الأيديولوجية على نوع من العلية المتطلعة إلى المستقبل، هى تحقيق مجتمع بلا طبقات .

ولكن البنائية كانت هى التى أوقفت ـ بطريقة حاسمة ـ هذا التيار الطاغى للنزعة التاريخية، أو على الأقل قضت على ادعائها احتكار القدرة على تفسير الظواهر البشرية. فقد استعاضت البنائية عن النظرة الشائعة إلى تقدم الروح الإنسانية، وهى النظرة التى تمثل هذا التقدم على أنه تراكم تدريجى لمكتسبات يضاف الجديد منها إلى القديم إضافة خارجية، استعاضت بتصور آخر تكون فيه الأفكار الجديدة مجرد توسيع لأفكار سبق ظهورها من قبل، وإن كانت قد اتسمت فى البدء بالبساطة والبدائية.. فالعقل الإنسانى لا يسير فى طريقه بطريقة جيولوجية ـ إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير ـ أى أنه لا يضيف طبقة من المعرفة فوق طبقة أخرى ، وإنما يسير بطريقة عضوية، يعيد فيها تمثل القديم بطريقة أصعب وأعقد، ويحتفظ فيها ببنائه القديم، وإن كان يدرك خلال تطوره أن هذا البناء ـ الذى كان يعد صحيحاً صحة مطلقة فى وقت مضى ـ لا يمثل إلا جانباً من الحقيقة، هو ذلك الجانب الذى كان عقلنا يستطيع بلوغه فى ذلك الوقت .

وفى وسعنا أن نربط بين معارضة البنائية للنزعة التجريبية ومعارضتها للنزعة التاريخية فى هذه النقطة بالذات ، فنقول : إن تصور التقدم البشرى بأنه تراكم تدريجى لمكتسبات تتجدد على الدوام ، وهو التصور المميز للنزعة التاريخية، ينطوى على وجه من أوجه النزعة التجريبية ، إذ يصبح التقدم عندئذ حصيلة وقائع تجريبية تضاف كل منها إلى الأخرى مكونة طبقات متراكمة بعضها فوق بعض. وفى مقابل ذلك ترفض البنائية كلاً من النزعتين التاريخية والتجريبية ؛ إذ تستعيض عن التصور السابق بتصور آخر يظل فيه العقل البشرى متضمناً صوراً أو قوالب أو عمليات ثابتة ، وإن كنا لا نكف عن إعادة النظر فيها، وعن توسيعها وتعقيدها.

أى أن كل تقدم يظل محتفظاً بالنواة المركزية، مع إعادة تفسيرها لها وفقاً لمقتضيات العصر . وهكذا يمكن القول أن نوع التقدم الذى تعترف به البنائية هو ذلك الذى يرى أن طريق المستقبل يمر بالماضى، وأن الوصول إلى الغد يتم من خلال مراجعة ما تم بالأمس .. فالبذور القديمة موجودة دائماً، وكل ما نفعله هو أننا ننميها بطريقة جديدة .

والواقع أن كثيراً من الباحثين فى تطور الحضارات قد اعترفوا بهذا المبدأ الذى تنادى به البنائية حتى قبل أن تعبر البنائية عن نفسها بوصفها مذهباً فكرياً متميزاً. فمنذ وقت بعيد لاحظ مؤرخو الحضارة أن كثيراً من ضروب التفكير العلمى والإبداع التكنولوجى التى عرفها العصر الحديث ليست إضافة مطلقة لشىء لم يكن موجوداً من قبل، بل هى تنمية لبذرة سبق ظهورها فى عصور ماضية. وهكذا عرفنا من تاريخ العلم والفلسفة أن نظرية التطور ـ كما ظهرت فى القرن التاسع عشر ـ إنما هى صياغة جديدة لفكرة نستطيع أن نعدها من البذور الثابتة فى العقل البشرى، نبتت عند **أناكسيمندر** فى القرن السادس ق.م. وربما قبل ذلك أيضاً، واتخذت أشكالاً متعددة ، إلى أن صيغت بالطريقة الحاسمة على يد **داروين**، ومثل هذا يقال عن فكرة الذرة التى بدأت من عهد **ديمقريطس**، واكتسبت أشكالاً متباينة عند فلاسفة الإسلام وفلاسفة الغرب فى العصور القديمة والوسطى والحديثة ، إلى أن اتخذت شكلها العلمى فى العهد القريب. وحين اخترعت أوربا البارود كان الجميع يعلمون أن الصين قد استخدمته من قبل. وحين توصل **جيمس واط** إلى الطاقة البخارية تنبه الكثيرون إلى أن المخترع الرومانى **هيرو** Hero قد عرف هذه الطاقة من قبل، وإلى أن **ليوناردو دافنشى** وضع تصميماً لآلة تحركها طاقة البخار.. وهكذا عرف الباحثون فى تاريخ الأفكار وفى تاريخ الحضارات مئات الأمثلة التى تثبت أن مسار التقدم البشرى يتخذ شكل تنمية وتطوير لمبدأ قديم يكاد يكون ثابتاً، لا شكل إضافات خارجية جديدة كل الجدة ، وأدركوا أن التصورات الأساسية ـ التى نفهم بها عالمنا الحالى ـ كانت موجودة من قبل، وإن كنا قد نميناها وعقدناها. وعرفوا أن طريق العقل البشرى لا يمثل

انتقالاً من الظلام إلى النور، ومن الجهل إلى المعرفة، ولا يسير فى خط مستقيم، كذلك الذى يقول به دعاة التقدم المستمر.

ومن السهل أن ندرك وجود فارق واضح بين هذا الموقف الذى اتخذته البنائية من فكرة التاريخ والتطور، وبين الموقف الذى ساد بوجه خاص فى الأوساط الفلسفية الفرنسية فى أوائل القرن العشرين. والذى يؤكد أن العصور اللاحقة تتجاوز تصورات العصور السابقة، بل تتخلى عنها نهائياً. وقد تمثل هذا الموقف الأخير فى الفكرة التى اتخذ منها عالم الاجتماع الفرنسى **ليفى بريل** Lévi Bruhl محوراً لأبحاثه، أعنى: فكرة وجود عقلية «قبل المنطقية Metnalité prélogique » لدى البدائيين، كما تمثلت فى فكرة «مراحل العقل» عند **ليون برنشفيج** Léon Brunschvieg، التى ينتقل فيها العقل العلمى الإنسانى من مرحلة «الطفولة» إلى مرحلة النضج. هذه الأفكار تفترض انتقالاً من الجهل التام إلى المعرفة الكاملة، وتصور تاريخ العقل البشرى بأنه صعود مستمر إلى أعلى دون وجود أى عنصر مشترك بين القديم والجديد . وهذا ما ترفضه البنائية ؛ لأنها تؤكد مفهوم «التوازى» بين التصورات القديمة والجديدة. فالعقل البشرى ينمو فى كل الأحوال عن طريق تعميق التفسيرات التى يقدمها للطبيعة، وتحويلها من مرحلة التقيد بالمظاهر الخارجية إلى مرحلة كشف القوانين الكامنة، ولكن أساس هذه التفسيرات يظل واحداً ، والعناصر الأساسية باقية . والمقولة الأساسية فى فهم التاريخ هى مقولة التوازى لا مقولة المسار الخطى الصاعد.

ولقد أورد **سيباج** Sebag مثلاً للفرق بين المنهج التاريخى والمنهج البنائى، مستمداً من دراسة **لجورج دوميزيل** G. Dumezil ، فى مجال علم الأديان المقارن. فقد انتهى «دوميزيل» إلى أن كل دين من أديان الشعوب (الهند/ أوربية) يتضمن تقسيماً ثلاثياً لموضوع العقيدة، وأن هذا التقسيم يتمثل لدى الجميع، وإن تفاوتت صوره واختلف فى مدى وضوحه ونقائه. وهكذا نكتشف من وراء تباين الآلهة والشعائر ووظائف العقيدة فى كل حالة تقسيماً واحداً يظل على ما هو عليه مهما تنوعت الحضارات. وعلى العكس من ذلك، فإن النظرة التاريخية ـ إلى هذا الموضوع ذاته ـ تستخلص كل شكل من أشكال الألوهية من الواقع الدينى

الخاص بكل شعب على حدة ؛ ولذلك لا تتوصل إلا إلى دلالات جزئية ، وتضيع منها التشابهات البنائية الموجودة وراء السطح الظاهرى لتعدد العقائد .

والواقع أن النظرة التاريخية إذا توصلت إلى أى نوع من البناء؛ فهى إنما تتوصل إليه بعد دراسة مضنية للجزئيات وللأمثلة الفردية ، ولن تستطيع برغم ذلك أن تتوصل إلى بناء أساسى؛ ولذلك تعكس البنائية الآية، فتضع التغيرات التاريخية الجزئية « فى إطار » البناء الثابت، وتفسرها من خلاله. فالتاريخ يدور فى إطار البناء، ويفسر بواسطته، لا العكس. والعملية التاريخية الخلاقة لا تفهم إلا من خلال البناء الذى ظل موجوداً طوال ألوف السنين؛ ولذلك يمكن تشبيه العلاقة بين البناء والعمليات التاريخية العينية التى تدور فى إطاره، والتى تضفى الحياة على البناء اللاواعى، وتنقله إلى مجال الوجود الفعلى ـ يمكن تشبيهها بالعلاقة بين «الشفرة Code» والرسائل المختلفة التى نحصل عليها بعد معرفة هذه الشفرة.

ولقد تأثر علم التاريخ بهذه الحركة الجديدة التى بدأت بها البنائية عهداً جديداً، فظهرت مدرسة تاريخية تركز جهدها على كشف عناصر الثبات فى المسار التاريخى ، وعلى كشف المعالم العامة للحضارات التى تمتص فى داخلها الأحداث وتصبغها بصبغتها الخاصة ، بدلاً من أن تتشكل بالأحداث وتسير فى تيارها ، ولكن ظهر أيضاً رد فعل مضاد بين مؤرخين رأوا فى هذه النظرة البنائية هدماً لكل ما هو أساسى فى التأريخ؛ ذلك لأن البنائيين يركزون على فكرة انعدام التغير Invariance ، أما بالنسبة إلى المؤرخ فهناك على الدوام مؤثرات وتناقضات داخلية تتجه دائماً إلى إحداث توازن جديد، فالتحليل التاريخى يؤكد فكرة الحركة ..وهو نقيض السكون الذى يؤكده التحليل البنائى ؛ ولذلك يرى أنصار هذا الاتجاه المعارض للبنائية أن التاريخ يرفض الأبنية الثابتة ، بل إن الزمان يحمل فى طياته كل بناء ويغيره ، وقد يكون هذا التغيير بطيئاً ، كما فى حالة البناءات العقلية والمنطقية التى لا تتغير خلال التاريخ إلا ببطء شديد ، وقد يكون سريعاً ـ كما فى حالة الأوضاع الاقتصادية أو البناء القانونى لمجتمع ما ـ ولكن كل بناء يظهر ثم يذبل ويختفى ، وعلى المؤرخ أن يدرس كيف يتم الانتقال من بناء إلى آخر، فى

ضوء اختلاف الإيقاع، الذى تتطور به البناءات فى المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والعقلية .

على أننا لا نود أن نختتم هذا الجزء الذى نعرض فيه لموقف البنائية من النزعة التاريخية ، دون أن ننبه إلى **ثلاث مسائل مهمة** ، ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار فى صدد النزاع المشهور بين البنائية والتاريخية :

١ ـ إن البنائية تستطيع أن تجد وسيلة للتوفيق بين نزوعها إلى الثبات ونزوع المؤرخ إلى الحركة والتغيير، وذلك عن طريق التفرقة بين الإطار العام والمضمون الداخلى فى كل حدث تاريخى، فمضمون الأحداث التاريخية ـ والمادة المحتواة فيها ـ هو الذى يختلف تبعاً للعصور والمجتمعات، ولكن هذا المضمون المتغير يكشف عن تنظيم يظل على ما هو عليه مهما اختلفت السياقات الاجتماعية والتاريخية . أى أن ما يسرى عليه التطور والتغير، وما يخضع للتفسير التاريخى، هو المضمون والمادة الداخلية، أما التنظيم والبناء فهو فوق التاريخ. وعلى هذا النحو تستطيع البنائية أن تقدم إرضاء جزئياً ـ على الأقل ـ للمؤرخ الذى لا يمكنه أن يتصور علمه بدون فكرة التغير والحركة المستمرة ؛ فهى لا تنكر التاريخ، وإنما تحصر تأثيره فى إضافات وتنوعات تطرأ على إطار ثابت، على حين أن المؤرخ يؤكد أن كل شىء متحول، وأن أى بناء لابد أن يسير فى تيار التاريخ المتدفق .

٢ ـ على أن البنائية لم تكن تهدف أساساً إلى معارضة المؤرخين حين أعلنت معارضتها للنزعة التأريخية ؛ ذلك لأنها كانت تحارب هذه النزعة فى مجالات العلوم الإنسانية الأخرى ـ قبل أن تحاربها فى مجال التاريخ ذاته ـ وهدفها الأساسى كان رفض التفسير الذى انتشر زمناً طويلاً ، والذى يُرجع الظواهر الإنسانية إلى مَنْشَئِها وتطورها فحسب، ويعجز عن كشف عناصر الثبات فيها .

ومن هنا كان ميدانها المفضل ـ وهو الميدان الذى تستمد منه الحركة البنائية وحيها الأول ـ هو ميدان اللغويات الذى حرص رائده «**دى سوسير**» على أن يكشف فيه بعداً لا يمت إلى التاريخ بصلة ، فقد ميز « دى سوسير » بين محورين أساسيين فى دراسة اللغة : محور التزامن Simultanéite الذى يختص بالعلاقات

بين التراكيب اللغوية دون أية إشارة إلى الزمان ، ومحور التعاقب Successivité الذى تبحث فيه ظواهر المحور الأول ، لا من حيث هى موجودة معاً فى وقت واحد ، بل من حيث هى متطورة متغيرة ؛ ومن هنا قسّم الدراسات اللغوية إلى: سكونية Statique أو (تزامنية Synchronique) وهى المتعلقة بالتركيب الثابت للمعانى والرموز ، وتطورية Évolutive أو (تعاقبية Diachronique) وتتعلق بما يطرأ على التراكيب والعلاقات اللغوية من تطورات . وعلى الرغم من أن «دى سوسير» لم يتجاهل المحور الثانى الذى يتضمن فكرة الزمان والتاريخ، فإنه أدخله فى سياق أوسع ، وكان أكثر اهتماماً بالمحور الأول، أى: بالبحث فى الثوابت اللغوية التى تعبر عن بناءات لا يؤثر عليها التطور ؛ لأنها جزء من التركيب الأصلى لمفهوم « اللغة » بوصفها وسيلة للتعبير الرمزى عن المعانى . وبالمثل كان ميدان «الإثنولوجيا Ethnologie » ميداناً آخر مفضلاً لدى البنائيين ؛ لأنه يتعلق بشعوب بدائية ـ أعنى: بما يمكن أن يوصف بأنه شعوب بلا تاريخ ـ ما دام التطور يكاد يكون غير ملحوظ بين هذه الجماعات ، ومن هنا كان نجاح البنائية فى كشف الأنساق الثابتة فى هذا الميدان ، وعجزها عن تطبيق منهجها هذا على الجماعات البشرية الحديثة، التى هى مجتمعات موجودة «فى التاريخ»؛ ففى الشعوب البدائية تحل الأسطورة محل التاريخ، ومن سمات الأسطورة أن التعاقب الزمنى لا يؤدى فيها وظيفة ذات بال ، بل إن الأسطورة ذاتها إذا طرأ عليها تطور خلال الزمان ، فإن القديم فيها يتعايش مع الحديث، كما تتعايش حفريتان تنتميان إلى عصور مختلفة ؛ ولذلك كان الميدان المفضل للبحث فى المبادئ الأساسية للعقل الإنسانى عند البنائية ، هو الأساطير البدائية الساكنة المعبرة عن العقل فى ثباته وفى سماته الجذرية .

٣ ـ والواقع أن البنائية ـ فى معارضتها للنزعة التأريخية ـ قد استهدفت إحداث تغيير منهجى حاسم فى العلوم الإنسانية . ويمكن القول أن هذا التغيير يماثل ـ من وجهة نظرها الخاصة ـ ذلك الانقلاب الأساسى الذى طرأ على العلوم الطبيعية حين تخلت فى أوائل العصر الحديث عن الطريقة الكيفية فى فهم ظواهر

العالم الطبيعى ، واستعاضت عنها بالطريقة الكمية ، فهناك أوجه شبه متعددة بين الهدف الذى تسعى البنائية إلى تحقيقه فى ميدان دراسة الإنسان ، وذلك الذى حققته العلوم الطبيعية فى تلك المرحلة الانتقالية الحاسمة من تاريخها :

ففى كلتا الحالتين كان الانتقال ثورياً، يمثل التحول من مرحلة «ما قبل العلمية» فى دراسة الظواهر، إلى المرحلة العلمية الدقيقة. ولقد كان من أهم أوجه النقد التى وجهها البنائيون إلى المنهج التاريخى ـ فى دراسة الإنسان ـ التجاؤه إلى تعبيرات غامضة وعبارات إنشائية مطاطة، وعجزه عن التعبير عن الظواهر التى يتركها كلها تنساب فى مجرى التاريخ دون أن نتمكن من إيقاف هذا السيل المتدفق من أجل دراسته بطريقة علمية منضبطة».

مناقشة مذهب البنائية فى فهم التاريخ :

وإلى هنا أقف بما أنقله من كلام الدكتور فؤاد زكريا عن البنائية والنزعة التاريخية ، وأعتقد أن الفقرات الأخيرة من كلامه تؤيد ما قلناه من أن مذاهب الفلسفة ـ ومنها البنائية ـ لا مدخل حقيقياً لها فى ميدان التاريخ .

فنحن المؤرخين لا نتكلم فى البنائية، ولا نستعمل مصطلحها أو مصطلح الفلسفة ، وإنما نقول: إن «البناء» فى التاريخ هو العناصر الحضارية الأساسية التى مكنت للإنسان من دخول عصر الحركة الحضارية، أى أنها أساس الحضارة الأولى أو نقطة بدايتها، وهذه العناصر هى الزراعة التى مكنت للإنسان من الاستقرار فى مكان ثابت بدلاً من التجوال لجمع الغذاء، ثم استخدام النار الذى منح للإنسان الدفء والنور فى الليل، وأبعد عنه الوحوش والهوام ، وأضفى عليه شعوراً من الأمن والأمان، ثم مكنت له النار من الوصول إلى العنصر الثالث، وهو صنع آنية الفخار، فتمكن من الاحتفاظ بالماء وكذلك بالطعام، ثم صناعة النسيج التى مكنت له من كسوة نفسه وعمل خيمة وصنع حشية أو وسادة.

هذه العناصر الأربعة : الزراعة ، والنار، والفخار، والنسيج، هى قاعدة الحضارة التى حررت الإنسان من قيود ومخاوف كثيرة ، ومكنت له من التحرك الحضارى ، وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى كتابنا عن الحضارة مما أغنى عن تكراره هنا.

وقد تحدثنا عنه بأسلوب المؤرخ ونظرته، ومن ثم فإننا لم نحتج إلى استعمال مصطلح مثل البناء أو Structure ، و لم نقل:Structuralism ، وإنما قلنا: العناصر الحضارية الأساسية التى أتاحت للإنسان الخروج من ركود البداوة إلى الحركة الحضارية . وكل ما أعقب ذلك من مراحل الحضارة إنما هو تطور يقوم أساساً على خروج الإنسان من ركود البدائية إلى الحركة التاريخية التى استمرت إلى يومنا هذا ، والتاريخ ـ فى نهاية التحليل ـ هو ثمرة الدينامية، أى : عنصر الحركة التى لا يمكن تصور أى تاريخ بدونها.

وأختم هذا الكلام عن علاقة التاريخ بالمذاهب الفلسفية المعاصرة بالقول بأن المؤرخ ما دام يتعامل مع الوقائع الثابتة، فقد أغناه الله عن التفلسف، وخير ما يفعله فى هذه الحالة هو أن يقنع بوظيفته مؤرخاً فحسب، أو يجتهد فى القيام بهذه الوظيفة بكل مطالبها وشروطها ومنهجيتها من صدق ودقة واستقصاء وأمانة وإدراك حقيقى لمسئولية المؤرخ وحدود تلك المسئولية.

وهذا كلام يغنى عن الإجابة عن السؤال ـ الذى لا يزال البعض يحاولون الإجابة عنه ـ : ما فائدة التاريخ ؟ .. لأن التاريخ علم، والعلم فى حد ذاته فائدة. فإذا نحن سألنا عن فائدة التاريخ كان علينا أن نسأل قبل ذلك: وما فائدة العلم كله؟ هذا فى حد ذاته سؤال لا معنى له، ولا يستحق عناء الإجابة ؛ فمن يريد أن يعرف فائدة التاريخ ليدرسه فخير له أن يوفر جهده ويطلب مطلباً آخر ؛ لأن المؤرخ الحق لا يسأل قط عن فائدة التاريخ ، لأن التاريخ حياته وسبيله فى الدنيا ، ومن هنا .. فإن التاريخ هو المؤرخ نفسه بالنسبة للمشتغل به. ومن لم يفهم هذه العبارة فليس بمؤرخ ، مهما كتب فى التاريخ .

مدخل إلى فقه التاريخ :

فإذا كنا ـ نحن معاشر المؤرخين ـ نرى أن ميدان دراستنا بعيد عن مجالات الفلسفة والتفلسف ، وإذا كنا نرى أن الحكمة ضالة بعيدة لا تُدرَك عن طريق الدراسات التاريخية وحدها ؛ لأنها مرتبة من العقل والنظر والفكر، تحتاج ـ إلى جانب الدرس ـ إلى مواهب من صدق النظر ونفاذ البصيرة ، والتجرد عن الهوى،

والتعلق بالحق ولا شيء دونه . فماذا نقول في أولئك النفر منا ممن استبحروا في العلم بالتاريخ . فلم يقتصر علمهم على تاريخ بلد واحد أو قطر واحد أو عصر واحد ، وإنما هم ارتفعوا بالاطلاع الواسع وطول النظر ، وترديد الفكر ، والإحاطة بتاريخ الجنس البشري والأرض، ووصلوا إلى مرقاة تجعل ما يكتبونه خارجاً عن المألوف متميزاً على ما سواه بالأنظار البعيدة ، والنظريات الشاملة ، والأحكام التي تخرج بأصحابها عن مجالات المؤرخين المجيدين؟ وماذا نقول في رجل مثل **ابن خلدون** ينظر إلى أحوال البشر، وينفصل عن تيار الحوادث التي يغرق فيها غيره ليصدر أحكاماً عامة، قد تصدق وقد لا تصدق، ولكنها تحرك الذهن في كل حين، وتجعل لهذا الطراز من التاريخ درجة أعلى من مجرد دراسة الحوادث، وتقصّي أحوال البشر، وما يجري عليهم من تصاريف الدهور؟ وماذا نقول في رجل مثل **أوزفالد شبنجلر**، يدرس التاريخ كما درسه غيره، ويتقصّى أحداثه كما يتقصاها غيره بالمنهج السليم والطريقة السوية، ثم يكتب بعد ذلك دراسة كبرى في تاريخ الغرب يقول فيها: إن حضارة الغرب بلغت ذروتها في آخر العصور الوسطى ، وإن تدهور الغرب بدأ مع النهضة الأوربية ؟ ..وماذا نقول فيما نتبينه من أن هذا الرجل يلتقي مع ابن خلدون عند هذه النقطة بالذات ، فابن خلدون يرى أن تطور البشر إذا وصل إلى مستوى الحضارة فقد فسد نظامه؟ .. وماذا نقول بعد ذلك في هذا الكلام البديع الذي يقوله **أرنولد توينبي** عندما يقول : إن حضارات الغرب بطبيعتها ومراميها والروح التي تسودها، لابد أن تؤدي إلى فساد الإنسان؛ لأن حضارتنا تفسد الأرض والبيئة، وتسمم الجو، وتحرم الإنسان من عناصر قوته الكبرى، وهي الحرية، وسلامة الحياة، وصحة البدن، وصفاء النفس، وحسن المقاصد؟ .

هؤلاء وغيرهم كثيرون ـ ممن ذكرنا في هذه الدراسة ، وممن لم نذكر ـ مؤرخون أساساً ، ولكنهم يشفّون عن غيرهم من أهل هذا العلم الشريف بشيء آخر ، لا هو فلسفة ولا هو حكمة ، وواحد منهم وهو **أرنولد توينبي** يوصف بأنه شاعر . ولكي نجد وصفاً سليماً ومعقولاً لهذه الطبقة من أهل التاريخ ، نجد أن أسلافنا ـ ممن وضعوا لنا أسس العلم ـ كانوا يقولون إن المستويات العالية من دراسات علوم الدين من تفسير وحديث واستخراج أحكام تصل بأصحابها إلى

مرتبة يسمونها الفقه، **والفقه أساساً هو الفهم ، والرجل منا يتفقه فى الدين إذا هو درس أصوله، واستطاع بعد ذلك أن يستخرج الأحكام والتشريعات منها ، والفقيه: هو العالم الفاهم الواسع الإدراك لما يدرس** ، ولكن تطور العلم عندنا جعل أهل الإدراك الواسع والنظر البعيد ، هم الفقهاء ، وكلامهم وما أثر عنهم فقه، فيقولون: **فقه السنة، وفقه عمر، وفقه على بن أبى طالب**؛ لأن الفقه هنا أخذ معنى آخر هو القدرة على الوصول إلى لباب الأشياء ، واستخراج الأحكام معتمدين على العلم أساساً ، ولكن ميزتهم الكبرى هى الفطانة ، والفطانة مرتبة من مراتب الذكاء تجعل الرجل الفطن يرى من فقه التاريخ ما لا يراه غيره، وكأنه ينظر إلى الأمور من مرقاة هى أعلى من مراقى غيره.

وبعد فقه الفحول من أعلام الأمة وأجلاء الصحابة نجد أنفسنا أمام علم النوابغ الذين برعوا فى ميدان من ميادين الأحكام، واجتمعت لهم بذلك حصيلة من الأحكام جعلتهم أصحاب مذاهب. ومذهب كل منهم هو طريقته فى الاستدلال واستخراج الأحكام من الأصول، مع حسن الإدراك لطبائع الناس وما يشوبها من ضعف، وما يتأتى من هذا الضعف من أخطاء تعفيهم أحياناً من العقاب؛ لأنها صادرة عن نواح من نواحى الطبع الإنسانى أو التمدن البشرى لا حيلة لهم فيها، والإمام **مالك بن أنس** يوصف بأنه صاحب الرأى، ومذهبه هو مذهب الرأى ؛ لأن الرجل ينظر فيما بين يديه من أصول الفقه، ثم يرى لنفسه رأيًا بينها ، و**أبو حنيفة النعمان** يجرى مجراه فى صدق النظر والفطانة، ولكن فى سكة أخرى، فهو يرفق بالناس حيث يتشدد مالك، وهو يستحسن بعض ما ينكره صاحبه، لا ترخصاً، وإنما سعة فهم وذكاء، وحسن إدراك لطبائع البشر، والدين يسر لا عسر ، ثم يجىء **محمد بن إدريس الشافعى** فيختلف مع صاحبيه ويدعو إلى الرجوع إلى الأصول، ومن الأصول يشق طريقه مبتكراً مذهبه القائم على أصول العلم ، وأصول الفقه، ويفتح بذلك فى مجال الفكر الفقهى الإسلامى باباً جديداً، أو قل: يرقى منه مرقاة جديدة تسمى **أصول الفقه**.

هذا أيضاً تستطيع أن تقوله فى هذه الصفوة من أهل التاريخ التى تساوت مع غيرها فى المنهج ، والإحاطة ، والدقة ، والأصالة، ولكنها انفردت بالنظر الواسع،

والفطانة فى الفهم، مع الاستبحار فى العلم بالتاريخ، مع المقارنات اللطيفة، والاستخراجات الذكية ، فهؤلاء ليسوا فلاسفة تاريخ ، ولا حكماء تاريخ ، وإنما هم فقهاء تاريخ ، وما يكتبونه هو فقه التاريخ ، ومن هنا فإن كتابات **ابن خلدون، وفيكو، وبوسويه، وشبنجلر، وتوينبى، وهويتسنجا،** هى فقه التاريخ، وفى هذا المستوى من العلم بالتأريخ والنظر إليه والتأليف فيه نجد عندنا مثالاً هو **محمد شفيق غربال**، وأنا أقتصر عليه فى هذا المثال لأننى عرفته وأخذت عنه، وكنت أدرس معه الشيء، وأقرأ معه أصوله ومراجعه ، ثم أجده بعد ذلك يرى من الحقائق ما لا أراه، وإذا كتب تاريخاً صاغه فى لفظ أنيق، فيه فطانة وبعد نظر وحسن إدراك مع دعابة لطيفة، وتحس وأنت معه أنك لست مع فيلسوف أو حكيم، وإنما أنت مع فقيه.

وفى هذه الأمة كثيرون من فقهاء التاريخ غير **ابن خلدون ومحمد شفيق غربال**، وإنما أنا أقتصر ـ فيما أكتب هنا ـ على من أعرف ويعرف عامة الناس ، ولا ينفى هذا أن يكون فى هذه الأمة من أهل زماننا وممن سبقونا فقهاء آخرون فى التاريخ، وما قصدت بهذا الكلام إلا أن أجد لفطاحل المؤرخين طبقة لا تخرجهم عن مجال التاريخ، وتفردهم كذلك بوصف يتفردون به عمن سواهم من أهل هذا الفن، مع اختلاف فى مراتبهم من ذلك وتفاوت.

ولا أظن أننى بهذا أجاوز حدود العلم، ففى زماننا هذا يوصف **عبد الرزاق السنهورى** بأنه فقيه المشرِّعين ، وكتاباته تدخل فى مجال فقه التشريع ؛ لأنها استخراج دقيق وابتكار مبدع فى مجالات التشريع ، وصل إليها هذا العلاّمة بعد البحث الواسع ، والاستقصاء الشامل ، والفكر الذكى القانونى الفطن. وأنا أقرأ ما كتب **شفيق غربال** ، فأحس أنه من نفس المستوى والطبقة.

***